سورة الحسين بن عليّ عليهما السلام

موجز في تفسير سورة الفجر

إعداد: سليمان بيضون

* السورة التاسعة والثمانون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «الليل».
* سُمّيت بـ«الفجر» لابتدائها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ① وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾.
* آياتها ثلاثون، وهي مكيّة، وفي الحديث النبويّ الشريف أنّ مَن قرأها «كانتْ له نوراً يومَ القيامة».
* ما يلي موجز في التعريف بهذه السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين)، و(الميزان)، و(الأمثل).

تبدأ سورة الفجر المباركة بمجموعة من الأقسام: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ① وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ② وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ③ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، وجواب الأقسام المذكورة محذوفٌ، يدلّ عليه ما يُذكر فيها من عذابِ أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة، وثوابِ النفوس المطمئنة، وحَذْفُ الجواب والإشارة إليه على طريق التكنية أوقعُ وآكد في باب الإنذار والتبشير.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن سورة الفجر «سورةُ الحسين بن عليّ»؛ ويُمكن أن يكون هذا الوصف بلحاظ قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ المقسوم بها في أوّل السورة، ففي بعض التفاسير أنّها ليالي محرّم العشر المتعلّقة بشهادة الإمام الحسين عليه السلام وربما كان الوصف بلحاظ أنّه صلوات الله عليه مصداقُ ﴿ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ المذكورة في آخر السورة؛ هكذا في التفسير المنسوب إلى الصادق عليه السلام.

محتوى السورة

(تفسير الميزان): في السورة ذمُّ التعلّق بالدنيا المفضي إلى الطغيان والكفران، وتوعّد أهله بأشدّ عذاب الله في الدنيا والآخرة، فتُبيّن أنّ الانسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أنّ ما آتاه الله من نِعَمِه هو من كرامته على الله، وأنّ ما يتلبّس به من الفقر والعَدَم هو من هوانه عليه سبحانه، فيطغى ويُفسد في الأرض إذا وجد، ويكفر إذا فقد، وقد اشتبه عليه الأمر، فما يصيبه من القدرة والثروة ومن الفقر وضِيق المعاش امتحان وابتلاء إلهيّ ليظهر به ماذا يُقدّم من دنياه لأخراه. فليس الأمر على ما يتوهّمه الإنسان ويقوله، بل الأمر كما سيتذكّره متى وقع الحساب وحضر العذاب: أي أنّ ما أصابه من فقر أو غنى أو قوّة أو ضعف كان امتحاناً إلهياً، وكان يُمكنه أن يقدّم من يومه لغده فلم يفعل وآثَر العقاب على الثواب، فليس ينال الحياةَ السعيدة في الآخرة إلّا النفسُ المطمئنة إلى ربها المسلّمة لأمره التي لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات، ولا يُطغي صاحبها الوجدان ولا يُودي به إلى الكفر الفقدان.

(تفسير الأمثل): سورة الفجر، كبقية السور المكّية، ذات آيات قِصار وأسلوب واضح ومصحوب بالإنذار والتحذير، وتقدّم لنا الآيات الأولى «أقساماً» نادرة في نوعها تهدّد الجبّارين بالعذاب الإلهيّ. وتنقل لنا بعض آياتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفة ممّن طغوا في الأرض وعاثوا فساداً (أقوام عاد، وثمود وفرعون)، وجَعْلهم عبرةً لأولي الأبصار، ودرساً قاسياً لكلّ من يرى في نفسه القوّة والاقتدار من دون الله تعالى. ثمّ تشير السورة باختصار إلى الامتحان الربّاني للإنسان، وتلومه على تقصيره في فعل الخيرات، وآخر ما تتحدّث عنه السورة هو «المعاد»، وما يناله المؤمنون ذوو النفوس المطمئنة من ثوابٍ جزيل، وفي المقابل ما ينال المجرمين والكافرين من عقابٍ شديد.

فضيلة السورة

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «مَن قرأها في ليالٍ عشرٍ [في بعض الشروحات أنها الليالي العشر الأولى من ذي الحجّة] غفر اللهُ له، ومَن قرأها سائرَ الأيّام كانت له نوراً يوم القيامة».

* وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اقرأوا سورةَ الفجر في فرائضِكم ونوافلكم فإنّها سورةُ الحسين بن عليّ، مَن قرأها كان مع الحسين بن عليّ يومَ القيامة في دَوحتِه [درجته] من الجنّة».

المرصاد قنطرةٌ على الصّراط

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ الآية:١٠.

سُئل الإمام الصادق عليه السلام: لأيّ شيءٍ سُمّي فرعون ذا الأوتاد؟

فقال: «لأنّه كان إذا عذّب رجلاً بسطَه على الأرض على وجهِه، ومدّ يديه ورِجلَيه فأوتدَها بأربعة أوتادٍ في الأرض، وربّما بسطَه على خشبٍ منبسط، فوتدَ رِجليه ويدَيه بأربعة أوتاد، ثمّ تركَه على حاله حتّى يموت؛ فسمّاه الله عزّ وجلّ فرعونَ ذا الأوتاد».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ الآية:١٤.

* النبيّ ﷺ: «أخبرني الروحُ الأمينُ أنّ الله لا إلهَ غيرُه إذا وقفَ الخلائقَ وجمعَ الأوّلين والآخرين أُتِيَ بجهنّم... ثمّ يُوضَعُ عليها صراطٌ أدقّ من الشَّعر وأحدُّ من السيف، عليه ثلاثُ قناطر؛ الأولى عليها الأمانة والرَّحِم (الرّحمة)، والثانية عليها الصلاة، والثالثة عليها عدلُ ربّ العالمين لا إلهَ غيره، فيُكلَّفون الممرَّ عليها، فتحبسُهم الرَّحِم (الرّحمة) والأمانة، فإنْ نجَوا منها حبستْهم الصلاة، فإنْ نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين جلّ ذكرُه، وهو قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾..».

** الإمام الصادق عليه السلام: «المرصاد قنطرةٌ على الصّراط، لا يَجوزُها عبدٌ بمَظلمة عبد».

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ الآية:٢٢.

سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن هذه الآية فقال: «إنّ الله سبحانَه لا يُوصَف بالمجيء والذهاب، تَعالى عن الانتقال، إنّما يعني بذلك: وجاءَ أمرُ ربك».

قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ..﴾ الآية:٢٣.

سأل أميرُ المؤمنين عليه السلام النبيَّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن جهنّم: «كيف يُجاءُ بها؟»

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يَجيءُ بها سبعونَ ألفَ ملَك، يَقودونها بسبعين ألف زِمام، فتشرُدُ شردةً لو تُرِكتْ لأحرقتْ أهلَ الجمع. ثمّ أتعرّضُ لجهنّم فتقول: (ما لي ولكَ يا محمّد، فقد حرّمَ اللهُ لحمَك عليّ). فلا يبقى أحدُ إلّا قال: نفسي نفسي، وإنّ محمّداً يقول: ربِّ، أُمّتي أُمّتي».

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ الآيات:٢٧-٣٠.

الإمام الصادق عليه السلام: «وَالَّذي بعثَ محمّداً بالنبوّة وعجّل روحَه إلى الجنّة، ما بين أحدِكم وبين أن يغتبطَ ويرى سروراً أو تَبين له النّدامة والحَسرة إلّا أن يُعاينَ ما قالَ الله عزّ وجلّ في كتابه... وأتاه ملَكُ الموت بقبضِ روحِه، فيُنادي روحَه فتخرجُ من جسدِه، فأمّا المؤمنُ فما يحسُّ بخروجها، وذلك قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ..﴾».

ثمّ قال: «ذلك لمن كان ورِعاً، مُواسياً لإخوانه، وَصولاً لهم..».

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

صفات أهل الإيمان في القرآن الكريم

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

هذه المقالة مختصر ما أورده العلامة الطباطبائي في (الميزان) عند تفسيره الآيات الأولى من سورة (المؤمنون) التي تعدّد صفات المؤمنين من الخشوع في الصلاة والمحافظة على أوقاتها، والإعراض عن اللغو، وإخراج زكاة الأموال، وحفْظ الفروج، وأداء الأمانات والوفاء بالعهود.

«شعائر»

* قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: الفلاح: الظَّفَر وإدراك البُغية، وذلك ضربان: دنيويّ وأُخرويّ، فالدنيويّ الظفرُ بالسعادات التي تَطيب بها الحياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعزّ، والأخرويّ أربعة أشياء: بقاءٌ بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزٌّ بلا ذلّ، وعلمٌ بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيشَ إلّا عيشُ الآخرة.

معنى الإيمان

الإيمان: هو الإذعان والتصديق بشيءٍ بالالتزام بلوازمه، فالإيمانُ بالله تعالى في عُرف القرآن التصديق بوحدانيته ورُسله واليوم الآخر، وبما جاءت به رُسله مع الاتّباع في الجملة. ولذا نجد القرآن كلّما ذكر المؤمنين بوصفٍ جميل أو أجرٍ جزيل شفّع الإيمان بالعمل الصالح كقوله سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ..﴾ النحل:٩٧، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ الرعد:٢٩، إلى غير ذلك من الآيات.

وليس مجرّد الاعتقاد بشيء إيماناً به حتّى مع عدم الالتزام بلوازمه وآثاره، فإنّ الإيمان علمٌ بالشيء مع السكون والاطمئنان إليه، ولا ينفكّ السكون إلى الشيء عن الالتزام بلوازمه، لكنّ العلم ربّما ينفكّ من السكون والالتزام، ككثيرٍ من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرّة، فإنّهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره لكنّهم لا يتركونها معتذرين بالاعتياد، وقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ..﴾ النمل:١٤.

والإيمانُ وإن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لِصارفٍ من الصوارف النفسانية يَصرف عنه، لكنّه لا يتخلّف عن لوازمه بالجملة.

الخشوع

* قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾، الخشوع تأثّر خاصّ من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجّه إليه، والظاهر أنّه من صفات القلب، ثمّ يُنسب إلى الجوارح أو غيرها بنوعٍ من العناية، كقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم – على ما رُوي – فيمن يعبث بلحيته في الصلاة: «**أما إنّه لو خشعَ قلبُه لخشعتْ جوارحُه**»، وقوله تعالى: ﴿..وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ..﴾ طه:١٠٨.

والخشوع بهذا المعنى جامعٌ لجميع المعاني التي فسِّر بها الخشوع في الآية، كقول بعضهم: هو الخوف وسكون الجوارح، وقول آخرين: غضّ البصر وخفْض الجناح، أو تنكيس الرأس، أو عدم الالتفات يميناً وشمالاً، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام، أو التذلّل، إلى غير ذلك.

الخشوع من صفات القلب وهو تأثّر خاصّ من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجّه إليه

وهذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الإيمان حيّاً فعّالاً يترتّب عليه آثاره المطلوبة منه، ليترتّب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح، فإنّ الصلاة توجّهٌ ممّن ليس له إلّا الفقر والذلّة إلى ساحة العظَمة والكبرياء ومنبع العزّة والبهاء، ولازِمُه أن يتأثّر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلّة والهوان وينتزع قلبه عن كلّ ما يشغله عمّا يهمّه ويواجهه، فلو كان إيمانه إيماناً صادقاً جعل همّه حين التوجّه إلى ربّه همّاً واحداً، وشغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره، فماذا يفعل الفقير المحض إذا لقيَ غنىً لا يقدّر بقدَر؟ والذليل إذا واجه عزّة مطلقة لا يشوبها ذلّة وهوان؟ وهذا معنى قوله صلّى الله عليه وآله وسلم في حديث الحارثة بن النعمان المرويّ في (الكافي) وغيره: «**إنّ لكلّ حقٍ حقيقةً ولكلّ صوابٍ نوراً..**». الحديث.

الإعراض عن اللّغو

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، اللّغو من الفعل هو ما لا فائدةَ فيه، ويختلف اختلاف الأمور التي تعود عليها الفائدة، فرُبّ فعلٍ هو لغوٌ بالنسبة إلى أمر وهو بعينه مفيدٌ مُجْدٍ بالنسبة إلى أمرٍ آخر.

فاللّغو من الأفعال في نظر الدين الأعمالُ المباحة التي لا يُنتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضاً إلى الآخرة، كالأكل والشرب بداعي شهوة التغذّي اللّذين يتفرّع عليهما التقوّي على طاعة الله وعبادته، فإذا كان الفعل لا يُنتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللّغو، وبنظرٍ أدقّ هو ما عدا الواجبات والمستحبّات من الأفعال.

ومن حقّ الإيمان أن يدعو إلى ذلك، فإنّ فيه تعلّقاً بساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزّة والمجد والبهاء، والمتّصف به لا يهتمّ إلا بحياة سعيدة أبديّة خالدة، فلا يشتغل إلّا بما يستعظمه الحقّ ولا يستعظم ما يهتمّ به سفَلَة الناس وجهلتُهم، ﴿..وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الفرقان:٦٣، ﴿..وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ الفرقان:٧٢.

البَذل والإنفاق

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، ذِكر الزكاة مع الصلاة قرينةٌ على كون المراد بها الإنفاق المالي دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزالة رذائل الأخلاق عنها، ولعلّ المراد بالزكاة المعنى المصدريّ وهو تطهير المال بالإنفاق منه دون المقدار المخرَج من المال، فإنّ السورة مكّية وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنّما كان بالمدينة ثمّ صار لفظ الزكاة علَماً بالغلبة للمقدار المعيّن المخرج من المال. وبهذا يستصح تعلّق ﴿لِلزَّكَاةِ﴾ بقوله ﴿فَاعِلُونَ﴾، والمعنى: الذين هم فاعلون للإنفاق المالي.

ومن حقّ الإيمان بالله أن يدعو إلى هذا الإنفاق المالي، فإنّ الإنسان لا ينال كمال سعادته إلّا في مجتمع سعيد ينال فيه كلّ ذي حقّ حقّه، ولا سعادة لمجتمع إلّا مع تقارب الطبقات في التمتّع من مزايا الحياة وأمتعة العيش، والإنفاق المالي على الفقراء والمساكين من أقوى ما يُدرك به هذه البُغية.

العفاف

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ استثناءٌ من حفظ الفروج، والأزواج: الحلائل من النساء، وما ملَكت أيمانهم: الجواري المملوكة.

حفظ الأمانة

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، الأمانة مصدرٌ في الأصل. وربّما أُريد به ما ائتُمن عليه من مالٍ ونحوه، وهو المراد في الآية، ولعلّ جمعَه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس، وربّما قيل بعموم الأمانات لكلّ تكليفٍ إلهيّ ائتمن عليه الإنسان، وما ائتُمن عليه من أعضائه وجوارحه وقواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله، وما ائتمنه عليه الناس من الأموال وغيرها.

والعهد: بحسب عُرف الشرع ما التُزم به بصيغة العهد، شقيق النذر واليمين، ويُمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجّه إلى المؤمن، فإنّ الله سبحانه سمّى إيمان المؤمن به عهداً وميثاقاً منه على ما توجّه إليه من تكاليفه تعالى بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ..﴾ البقرة:١٠٠، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ..﴾ الأحزاب:١٥، ولعلّ إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد، لأنّ جميع التكاليف يجمعها عهدٌ واحد.

والرعاية: الحفظ.

وبالجملة، الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تُخان، والعهد من أن يُنقض، ومن حقّ الإيمان أن يدعو إلى ذلك، فإنّ في إيمانه معنى السكون والاستقرار والاطمئنان، فإذا آمن أحدٌ في أمانة أودعها عنده أو عهد عاهده وقطع على ذلك استقرّ عليه ولم يتزلزل بخيانةٍ أو نقض.

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، جمع الصلاة وتعليق المحافظة عليها دليلٌ على أنّ المراد المحافظة على العدد، فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيءٌ من الصلوات المفروضة ويراقبونها دائماً، ومن حقّ إيمانهم أن يدعوهم إلى ذلك. ولذلك جُمعت الصلاة ههنا وأُفردت في قوله ﴿.. فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، لأنّ الخشوع في جنس الصلاة على حدّ سواء، فلا موجب لجمعها.

الإيمانُ بالله تعالى التصديق بوحدانيّته ورُسله واليوم الآخر، ولا يُعدّ الاعتقاد بشيء من دون الالتزام بلوازمه إيماناً به

اللّغو هو الفعل أو القول الذي لا يُنتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحوٍ إلى آخرة